في تلك الليلة أصابني أرق شديد، فأقنعت نفسي بمشاهدة النجوم كما أقنعت نفسي أنّني أفعل هذا دائما عندما أشعر بالملل. لم ينجح الأمر ولم أشعر بالنعاس يسري في جسدي بالرغم من أنها كانت ليلة مثالية: صيفية هادئة ومرصعة بالنجوم وتغريك بالحلم.

التّسكع في هذا المكان لن يجدي ولو بعد ألف سنة. رغم هذا فقد واصلت التسكّع، فلم أكن أتمتع برفاهية الإختيار. لا أتذكّر شيئاً من ذلك النّقاش السّلمي الذي أجريته مع نفسي عندما قاطعتني رائحة لطيفة. رحت أجول ببصري بين الحشائش النّديّة والصّخور لعلّني أجد مصدرها، ولا أخفي أبداً امتناني لضوء القمر، الذي لولاه لما لمحت تلك الزّهرة البنفسجيّة.

لم أكن لأفوّت الفرصة، فقد جلست بقربها لأتمتّع بعبيرها. عندما تغمض عينيك وتسلّم نفسك إلى أنفك وخيالك فإنّك ستصنع عالماً لن يوجد أبداً. بعد لحظات أحسست أنّ الرّائحة بدأت تصبح أقوى، فتحت عينيّ فإذا بها زهرة أخرى، ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحد، فقد رأيت أنّ مجموعة كبيرة من الزّهور تشكّل طريقاً.

لم أكن بحاجة إلى أن أتتبّع الطّريق لأعرف أين تقود، لقد انتهت الطّريق إلى المنارة القديمة التّي علتِ الصّخور، فلا يوجد أيّ مكان آخر يجعلني أشكّك فيما وصلت إليه.

تسلّقت الصّخور القاتمة وأنا أعاني صداعاً بسبب الأرق وقد قابلتني عند قمّة الصّخور آخر زهرة. كانت بعض الغمامات الصّيفيّة تطفوا على مهل فتغطّي القمر. عندما وصلت إلى المنارة وهممت بالدّخول لاحظت درَجاً حجريّاً بُنيَ لهذا الغرض بالذّات، لم أدرِ إن كان من صمّمه غبيّاً ليبنيه هناك حتى لا يلاحظه أحد، أم أنّني أنا الغبي الذي لم يفكّر في احتماليّة وجوده. لم أطِل التّفكير في الموضوع فقد وصلت إلى المنارة على أيّ حال، وما علي إلاّ أن أدخلها الآن.

دفعت الباب بهدوء فإذا بالظّلمة تفتك بالمكان، ولرأفة الغمامات بي فقد ابتعَدت عن القمر ليكسر ظلمة المنارة، وهذا بأن يرسل شعاعاً من النافذة الصّغيرة في الأعلى، والتي لن أصل إليها حتى لو استعملت كرسيّاً.

التفت حولي مستكشفاً، فخلصْتُ إلى أنّ جدار المنارة الدّائري الحجري يوحي ببرودة المكان، لكنّني كنت مخطئاً فقط احتفظت تلك الأحجار المستطيلة بحرارة النّهار لتنفقها في اللّيل.

تقدّمت قليلاً بعد أن شعرت أنّني اكتفيت من هذا المكان لأصعد الدّرج. تسمّرت في مكاني فزعاً! فقد رأيت شبحاً يجلس في هدوء على كرسيّ هزّاز يتأرجح في صمت. لم أشعر بغباء كبير وأنا أتقدّم نحوه، فشيء ما يخبرني أنّني سأكون بخير إن اقتربت منه. لقد كان شيخاً كبيراً تبدو عليه الطمأنينة. تمعّنت في وجهه أكثر، وقد اتّضح انّه يغطّ في نوم عميق يشبه نوم الموتى.

لم أرد أن أجازف أكثر لذا أسرعت الخطى نحو الدّرج اللّولبي. وجدت باباً آخر فهممت بدفعه، لكنّني تمهّلت بعد أن سمعت همهمةً وأنيناً، لقد أصابتني الدّهشة، فلم أتخيّل أبداً أن أجد حياةً هنا.

فكّرت للحظات، ربّما لا يجب أن أكون هنا، فمن يدري أيّ شيء يُدبّر هنا وأي كيان يحيكه.

لكنّني ولسوء طالعي أتميّز بفضول شديد قد يودي بي يوما إن لم يودي بي هذه اللّيلة. أقنعت نفسي مرّة أخرى أنّ هذه الهمهمة همهمة عشّاق، ولا ألطف من العشّاق. دفعت الباب قليلاً وإذا بي أرى ما أرى!

فتاة شقراء بلغت توّا مبلغ النّساء ترقد على ظهرها وتفترش الأرضيّة الخشبيّة و صدرها الصّغير عار وهي مغمضة العينين، كأنّها بإغماض عينيها ستمنع هروب لحظات لذيذة تعيشها. وبجانبها شابّ جالس يراقبها بهدوء كما يراقب والد أولاده الذين انغمسوا في ألعابهم.

ويا ويلي! ما جدوى ذلك المسدّس الذي بجانبه؟ وبالرّغم من الرعب الذي تملّكني فجأة فلم يفُتني أن ألحظ ملابسهما الغريبة، فقد كانت قديمة الطّراز، هل ضجرا وهربا من مسرحية كتبها شكسبير يا ترى؟ ومما زاد من غرابة الأمر وتناقضه هو عدم وجود أي علامة على استعمال القوّة أو إرغام على فعل معيّن.

رأتني الفتاة فقامت في خجل تغطّي صدرها وقد جلست على فخذ الشّاب الذي لم تتغيّر ملامحه ولا أظهر ردّة فعل، كأنّه كان يتوقّع مجيئي.

لم أشعر كأنّني ضيف غير مرغوب فيه رغم اقتحامي لخصوصيتهما.

فجأة نظر إليّ الشّاب ثمّ أشار إلى الأرض وابتسم، كأنّه يدعوني للجلوس وقد بدت تقاسيم وجهه صارخة وتتوسل إلي أن أجلس.

بعد كلّ هذه المسافة وهذا الفضول وذاك المسدّس ووجه الشّقراء الفاتنة، لم أتردّد لحظة في تلبية الطّلب.

تكوّرت الفتاة على الشّاب وتشبّثت به لكنّ عينيها الخجلتين لم تكفّا عن التّحديق بي، رغم أنّهما لم تلتقيا بعينيّ.

مرّت الدّقائق والهدوء يغمر المكان، في غضون ذلك الوقت كانت الفتاة تعبث بخيط يتدلّى من قميص الشّاب، وقد بدأ النّعاس يغمرها شيئاً فشيئاً. ضمّها إليه الشّابّ كأنّه يحاول أن يحميها من شيء ما، شيء كبير ولا قدرة له على حمايتها منه.

ومرّت دقائق أخرى فتوقّفت عن العبث بالخيط المتدلّي، وقد بدا أنّها قد غرقت في نوم هادئ، يشبه تماماً نوم العجوز الذي وجدته بادئ الأمر.

نزلت دمعة حارةٌ من وجه الشّاب، أمسك المسدّس بيد مرتعشة ورفعه ببطء إلى رأسه، وبابتسامة مخنوقة ومتأرجحة.

خرجت من المنارة ولم أحدّث نفسي كثيراً بشأن ما حدث، أو بشأن العجوز الذي اختفى واختفى كرسيّه معه. وأريد أن أقول، اختفت الزّهور كذلك وهدأ صداعي ثمّ بدأت بالتّثاؤب.